محاضرة رقم / 19

ابن خلدون (732- 808ه)

(التعاقب الدوري: فلسفة الدولة)

حياته :-

هو أبو زيد عبد الرحمن بن أبي بكر محمد بن خلدون الحضرمي, ولد في تونس وتوفي في القاهرة. تنقل كثيرا في الأمصار العربيّة والإسلامية. سافر إلى المغرب ثم إلى الأندلس, استقر كثيراً في فآس, واستطاع أن ينشئ درسه هنالك ويديمه برهة من الزمن, لكن الاضطرابات السّياسيّة التي كانت تحل متزامنة مع وفود ابن خلدون لأكثر من بلد , دعته إلى أن يغادر مرة ري إلى الأندلس. ثم هاجر منها بسبب خلاف سياسيّ آخر إلى تلمسان؛ فهرب منها أيضاً نحو البطحاء فنزل في قلعة أبي سلامة وهناك شرع بكتابه المعروف " المقدمة ", لم يراجعه ؛ أو يعيده إلى إحالته المطلوبة ؛ إلاّ بعد عودته لتونس. استقر فترة فيها وبسبب مشاكل أخرى سياسيّة؛ خرج بدعوى الحج فهرب من السلطان إلى الإسكندرية؛ ثم ذهب ليستقر في القاهرة. وأخذ يُدَّرس فيها في جامع الأزهر.أرسل في طلب أهله من تونس فغرقوا جميعاً؛ فاغتم لذلك غمَا وانقطع عن عمله. سافر, بعدها, لأداء الحج, وإلى دمشق مرتين؛ وكانت هذه آخر سفراته؛ فعاد وتوفي في القاهرة.

- الفلسفة والتاريخ :

سمي بفيلسوف المؤرخين . لأنّه وضع أسساً فلسفيّة للتاريخ. إذ كان الأمر, قبله, أشبه بسرد للحوادث, دون تلمس تلك المبادئ والكليات التي تحكم هذه الحوادث التاريخية. ولذلك وضع ابن خلدون كتابا في التاريخ , وكتب له مقدمة عرفت (بمقدمة ابن خلدون) والتي تحتوي على كثير من مفاهيمه في الاجتماع والفلسفة والتاريخ. وحاول أن يربط ابن خلدون بين هذه المعارف الثلاث عبر التعليل والتفسير لسلوك الكائنات في التاريخ ومن ذلك نكون قد بينا الربط بينهما .

فالتاريخ كما يقول ابن خلدون؛ : "خبر عن الاجتماع الإنساني الذي هو عمران العام وما يعرض لطبيعة ذلك العمران من الأحوال, مثل التوحش والتآنس والعصبيات وأصناف التغلبات للبشر بعضهم على بعض؛ وما ينشأ عن ذلك من الملك والدول ومراتبها, وما ينتحله البشر بأعمالهم ومساعيهم من الكسب والمعاش والعلوم والصنائع وسائر ما يحدث من ذلك العمران بطبيعته من الأحوال. وقد يبدو ذلك التعليل والتقصي والتحليل تفلسفاً. إلاّ أن البعض قد كشف عن مكامن تكفير ابن خلدون للفلاسفة وتعاطي الفلسفة. فالفلسفة عند ابن خلدون تساوي الكفر. وتقود إلى أفساد الدين وتحطيمه. إلا أنّهُ حكم إقصائي تكفيري لأنّه يصادر قروناً من التراث الفكري الفلسفيّ الكبير, ويحاكم بالنص التقريري الموجز بمجموعة كبيرة من خيرة ما نمتلكه من فلاسفة ومفكرين مسلمين وعرب.

ويصف ابن خلدون الفلسفة بأنّها "علوم عارضة في العمران كثيرة في المدن, وضررها في الدين كثير؛ فوجوب أن يصدع بشأنها, ويكشف عن المعتقد الحق فيها , وبعد مناقشة, لا تدوم سبع صفحات في كتاب "لمقدمة"؛ يقرر: " فليكن الناظر فيها متحرزاً جهده من معاطبها, وليكن نظر من ينظر فيها بعد الامتلاء من الشرعيات والاطلاع على التفسير والفقه, ولا يكبّن أحد عليها وهو خلو من علوم الملّة , ولعله هنا يريد أن يخالف الجانب التجريدي المتعالي؛والمنتحل, ببعض صوره؛ من اليونان في الفلسفة الإسلاميّة, إلا آنا إنْ أمعنا النظر في بعض إبداعات كتاب "المقدمة" سنرى بوضوح منهجاً فلسقَياً بالمعنى المتداول اليوم؛ والذي يعتمد النقد والتحليل والاستشراف؛ على اقله في ما أنتج على مستوى فلسفة التاريخ والحضارة.

محاضرة رقم/ 20

* الملك والسياسة وامكان تقبلها:ــ

يفرق ابن خلدون بين طبيعتين للجماعات البشريّة ؛ الأولى تحص المدن والأمصار؛ وهي التي تسمى بالحاضرة. وفيها الْحُكَامٍ يحكمون الناس بالقهر والسلطان ومنع التظالم؛ والثانية هي البوادي "جمع بادية " فهؤلاء يزع بعضهم عن البعض؛ في التظالم , مشايخهم وكبرائهم. وفي هذه المجموعة تظهر العصبيّة بقوة لكي تكون هي النظام الشارع للعلاقات بين أفرادها ومع من هو خارجه . وإّما ينأسس الملك القوي على الغلبة؛ والغلبة على العصبّة التي في القبائل. ولذلك يحاول ابن خلدون أن يتم تأسيسه بتعريف العصبية بالحديث عنها بقوله : " إن صلة الرحم طبيعيّ في البشر, إلا في الأقل , ومن صلتها النعرة على ذوي القربى وأهل الأرحام أن ينالهم ضيم أو تصيبهم هلكة ؛ فإن القريب يجد في نفسه غضاضة من ظلم قريبه أو العداء عليه .وعلى ذلك يقرر ابن خلدون الآتي : " لابد للرئاسة على القوم أن تكون من عصبيّة غالبة لعصبياتهم واحدة واحدة؛ لأنّ كل عصبية منهم إذا أحسَّتْ بغلب عصبية الرئيس لهم أقروا بالاذعان والاتباع ", وهنا قد يشوب النسب؛ وعلاقته بالعصبية؛ الكثير من الشوائب لأنْ المنتصر بالغلبة قد لا يكون من أهل النسب نفسه, فيرى ابن خلدون أن هذا المنتصر لا يمتلك منهم عصبّة؛ وبذلك فلا رئاسة حقيقيّة على أهل العصبية ثمن يكون من غير نسبهم .

ثم يحاول ابن خلدون مناقشة السلوك العربيّ السّياسي حرباً وملكا؛ ويقصد به السلوك المتجرد من الدين ولا يتبع الشريعة ؛ وهو سلوك يستعيد أطياف البادية أو مخالفة العمران. حتى قال عنهم: إنهم متى ما تغلبوا على أوطان أسرع إليها الخراب. كما أن العرب لا يحصل لهم الملك إلا بالدّين, من خلال النبوة أو الولاية ؛ أو تأثير عظيم عليهم بوساطة الدين. وذلك لأن في طبيعتهم صفات التوحش . وهم من أكثر الأمم صعوبة في الانقياد للغلظة والأنفة التي لديهم, والمنافسة في الرئاسة , فقلما تجتمع أهواءهم وميولهم , إلا بالنبوة أو الولايّة. وبفضل الدين يمكن تحسين شيمهم من التحاسد والتنافس, وبذلك يُذهب الله عنهم مذمومات الأخلاق , ويأخذهم بمحمودها. والعرب بذلك أبعد الناس عن السّياسة, حسب ابن خلدون. والسبب في ذلك إنّهم أكثر بداوة من سائر الأمم, وأبعد حالاً في القفر, وأغنى عن حاجات التّلول وحبوبها, لاعتيادهم لشظف وخشونة العيش, فاستغنوا عن غيرهم فصعب انقياد بعضهم لبعض. والرئيس الذي يتملك عليهم محتاج لعصبيتهم , التيّ يستعملها للمدافعة عن مدينته ؛ ويحول بها عن هلاكه وهلاكهم. وعلى الرئيس الذي يحكم العرب أن يكون سائساً بالقهر , والآ لم تستقم سياسته.

* الدولة: عمرها وأجيالها:-

سعى ابن خلدون إلى أن يشبه الدولة بالإنسان, عمراً وتعاقباً في الحياة , فقال: " إن الدولة؛ في الغالب, لاتعدو أعمار ثلاثة أجيال؛ والجيل هو عمر شخص واحد, من العمر الوسط, فيكون أربعين الذي هو انتهاء النمو والنشوء إلى غايته". ومجموع

الأجيال الثلاث يكون 120 سنة وبذلك ففي الغالب لا يتعدى عمر الدولة هذه السنوات , حسب ابن خلدون.

وحاول أن يصف هذه الأجيال عبر تقسيم ثلاثي هو :-

<u>*الجيل الأول " البداوة ":-</u> الذي لم يزل الناس فيه يزاولوا قيم البداوة وخلقها, بخشونتها وتوحشها وبسالتها والاشتراك في المجد فيها , لأنّهم لايزالوا يمتلكوا العصبية التي تحفظهم وتجعلهم غالبين.

<u>*الجيل الثاني "الحضارة":-</u> وهو الجيل الذي يتحول فيه الناس من البداوة إلّى الحضارة, ومن شظف العيش إلى الترف, ومن الاشتراك بالمجد إلّى الانفراد به من أحدهم وكسل الآخرين عنه. وكذلك يبدو فيه الميل إلى الاستكانة أكثر من الاستطالة؛ لأنّ العصبيّة فيه قد بدأت بالانكسار. وناس هذا الجيل أدركوا الجيل الأول وعصبيته وقوته؛ وشاهدوا ما كان الناس عليه فيه.

<u>*الجيل الثالث "الانهيار":</u> وهو الجيل الذي يضم الناس الذين نسوا عيشة البداوة؛ وما جاء في الجيل الأول, وفقدوا الإحساس بحلاوة العز والعصبيّة؛ وبذلك فقد أخذهم الترف مأخذاً كبيراً إلى أن جعلهم عيالاً على غيرهم. وفي هذا الجيل يستوي السلطان بالموالي ومن هم ليسوا أهل العصبيّة. ولذلك يكون الغريب عن العصبيّة مترأسا على أهلها فينبذون القائم على المدينة ولا يسندوه.

وعلينا أن نقفّ على سبب التحول من جيل إلّى جيل؛ وهو الترف. يؤدي الترف دور الناقل الحضاري في مراحل الدولة ووضعها من ناحية القوة والإمكانات, فالترف في بدايته يساعد الدولة على القوة بالنسب وكثر التناسل وشدة العصبّية. إلا أنهُ يودي دوراً عكسياً مع زيادته أكثر, ومع مرور الدولة

بنوع من الاتكال على الأجنبي من الأمم والموالي, فيكون مقدمة لانهيار الدولة بوجهه الآخر .

* أطوار الدولة :ــ

بعد أن ينجز ابن خلدون القول في الأجيال وأعمارها, ومن ثم عمر الدولة التي تمر بها, يعمد إلى تقسيم مراحل الدولة من بدايتها ,الّتي انهيارها بأطور خمسة هي :

الطور الأول: **طور الظفر بالملك:** ويتم هذا الطور بغلبة المدافع والممانع والاستيلاء على الملك؛ ويعتمد على العصبيّة التي يقع بما التغلب لتحصيل الملك.

الطور الثاني: **طور الاستبداد على قومه والانفراد بالملك:** وهو الطور الذي

يكون فيه الحاكم مستبداً بالملك , لا يقبل المساهمة فيه. ويكون طوراً معنياً بصناعة الرجال, وكثرة الموالي والصنائع؛ ويستقوي بالأجانب على أهل عصبيته, وكل من يرغبون المقاسمة معه في الملك؛ فيدفعهم بهؤلاء ويردهم على أعقابهم.

الطور الثالث: **طور الفراغ والدعة لتحصيل ثمرات الملك:** وهو طور طبيعيّ للبشر في رغبتهم أن يستلذوا بمكاسبهم في الملك لتحصيل ثمراته؛ فيعمل على تحصيل المال؛ وتخليد الآثار, وضبط الخرج والدخل, وتشييد المباني الحافلة والمصانع العظيمة, والأمصار المتسعة والهياكل المرتفعة؛ والتوسعة على خدمه وحواشيه والمقربين منه بالمال والجاه.

الطور الرابع: طور القنوع والمسامة: وفيه يكون صاحب الدولة قانع بما بناه من سبقه, ومقلداً لهم حذو النعل بالنعل؛ ويرى أن الخروج على تقليدهم افساد للملك؛ وأنَّهم كانوا أبصر من غيرهم فيما بنوه من بحد.

الطور الخامس: طور الاسراف والتبذير: وهو الطور الذي يسرف ويبذر فيه صاحب الدولة لكل ما جمع أولوه؛ في سبيل الشهوات والملذات؛ ويصطنع فيه

حواشياً من حوله لا يستطيعون تدبير الشؤون الكبيرة, التي يوليها لهم, ولا يعرفون ما يأخذون أو يتركون. ويستفسد كبار القوم, وصنائع أسلافه ؛ حتي يضطغن عليه قومه فلا ينصرونه ؛ وفي هذا الطور تحصل طبيعة الهرم؛ ويستولي على الدولة المرض المزمن الذي لن تتخلص منه إلا بموتها.

تم